(٢) إيقاع المعاصرة

فإن شئنا طرح الظاهرة من منظور عصرى باعتبار معاصرة الشاعر الجديد ، وجديد شعره من واقع اقتحامه مدرسة شعر التفعيلة ، بما لها من مقومات تجديدية تتعلق بأوزانها وتغاير قوافيها ، وطبائع صورها ، فربما كانت « التناصية » كمصطلح نقدى معاصر أقرب إلى كشف جوانب هذا النمط فى موقفه من الموروث مما يجعله قريباً إلى الأذهان ، باعتبار هذا التجاوز الشكلى عما كنا نلتزمه فى حديث المعارضات ، وإن كان الأمر يظل مقبولا لأنه لن يصل- بحال - إلى درجة المغايرة بين جنسين أدبيَيْن ، فكلاهما شعر ، وإن اختلفت صيغ التعبير وطبيعة التوجُّه بين العمودى القديم وبين الحر المعاصر .

علي أن ما يبقى واضحا ومؤكدا هو طبيعة تلك العلاقة المشتركة والمركبة من حيث الحضور النفسى والذهنى بين النصَّين - القديم والجديد - وربما أكثر عن طريق الاستشهاد أو « التضمين» ، دون أن ننزلق إلى القول بالسرقة الأدبية - هنا - خاصة أنها لم ترد ، ولم يقترب الشاعر من عالمها ، ذلك أن النص الأخير إنما يظل قادرا على استيعاب معطيات موروثة احتوتها نصوص أخرى سُبق إليها منذ صاغه مبدعه الأول ، وفى كلٍّ نجد ما يضمن لأى منها خصوصيته وعمومه فى سياق القاسم المشترك ، حين يتردد لدى اللاحق من خلال السابق عليه كما يظل معبرا عن ذاتية صاحبه فى آن واحد .

كما يبقى عطاء النص الأخير من حيث هندسة النص وطبيعة معماره كاشفا عن استمرار - بل ربما اتساع - باب التجديد والإضافة ، دون حجر على إبداع الشاعر بقدر ما يتكشف من استيعاب لقدرته على الابتكار ، فهو قادر على اصطناع ضرب من التفاعل النصى الذى يحدثه داخل النص الواحد ، وهو ما يمكنه من صياغة المقاطع ، أو تحويل مضامينها من بنية نصَّية بعينها ، قد تختلف عما هو بصدد معالجته حتى وإن وجد نظام المقاطع فى نصوص أخرى قديمة .

وعلى هذا لا يصح الاعتداد بمنطق المعارضة أو « التناص» أو حتى منطق الاستشهاد بشكل عميق ، إلا إذا اخذنا باعتبار الاستشهاد ذاته ضرباً من ضروب إعادة انتاج قول (النص المستشهد به) ، فهو مقتبس من النص الأول (الأصل) بإدراجه فى نص الاستقبال ، هذا إذا كان القول المستشهد به يبقى بمعناه الحَصْرى كما كان دون أن يلحقه أى تغيير فى ذاته